الفصل الأول

القيم الأخلاقية في فلسفة سانتيانا

أولًا: ماهية فلسفة الأخلاق

إن القول بأن سانتيانا فيلسوفٌ أمريكيٌ يقودنا بالضرورة إلى أن فلسفته الأخلاقية تحتوي في داخلها على أفكار تأصيلية تعود إما إلى الفلسفات القديمة، أو الفلسفات الحديثة والمعاصرة، أو قد تعود إلى الإثنين معًا، لذلك وضعت الدراسة على عاتقها بيان وتوضيح ذلك التأثير والتأثر لمعرفة التصور الأخلاقي لفلسفة سانتيانا.

لقد بدت فلسفة سانتيانا أخلاقية بشكل جوهري، وذلك من حيث قدرتها على الاهتمام، وأيضًا من خلال الاهتمام بالأوضاع الاجتماعية للحياة، وكذلك ظهور القيم وإمكانيات السعادة[1]. فقد وصف سانتيانا نفسه على حد تعبير «اسبيريج» بأنه فيلسوف أخلاقي، حيث يعني بذلك أن المطلب الأخلاقي قد ألهم بشكل واضح جل فلسفة سانتيانا، وذلك على أساس كون فلسفة سانتيانا فلسفة كلية وشمولية[2]. حيث أكد سانتيانا على أن الركيزة الأساسية في الاهتمام بتصور الأخلاقية Morality هي أن الأخلاق شأنها شأن الصحة Health يجب أن تتحدد من خلال التكوين الموجود في طبيعتنا الحيوانية، ولذلك فنحن نرتبط بشكل أعمق بالحقيقة الطبيعية أكثر من ارتباطنا بالأمنيات والأفكار المتقلبة[3]. وهذا ينحو بنا نحو المنهج الطبيعي عند سانتيانا.

(1) Baker Brownell: Santayana, the Man and the Philosopher, op. cit, p. 36.
(2) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p. 188.
(3) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 25.

لقد أشار سانتيانا إلى أن القيم الخلقية لا يمكنها أبدا أن تسيطر على الطبيعة، حيث إن القيم الرئيسية عبارة عن نتاج القوي الطبيعية وهي الإثبات Germination والتعريف، كما أن انتشار أي خير Good من الخيرات يجب أن يكون راسخا في الطبيعة ذاتها، بمعنى أن عالم المادة عند فيلسوفنا يعني رحم الأشياء ومصدر كل شيء في الوجود، إذ تعني المادة الطبيعة، وكذلك تعني إطار التكوين والأم الكلية التي أنجبت الوجود والقيم[1]. وقد أكد سانتيانا على ذلك بقوله «إن جل رسالتي الفلسفية هي كون الأخلاق والدين عبارة عن تعبيرات للطبيعة البشرية، حيث إن الطبيعة البشرية تأخذ شكل بيولوجي وحيوي، وأخيرًا فإن هذه الروح المسحورة المفتونة والمعذبة متضمنة في تلك العملية الطبيعية، بل تطلب الروح أن يتم إنقاذها من الحياة»[2]. فالطبيعة هي قاعدة العقل وموضوعه، والعقل هو ضمير الطبيعة، ومن خلال رؤية الضمير متي كانت واضحة، فإن العقل أيضًا يكون بمثابة تبرير للطبيعة وهدفها[3].

وهنا إذا كان سانتيانا يشير بصراحة إلى النزعة الطبيعية التي شكلت فلسفته الأخلاقية بشكل عام، فإن ذلك لم ينشأ عند فيلسوفنا من فراغ خلقي، حيث أشار سانتيانا إلى حقيقة هامة وهي لكي نأخذ في الاعتبار الفكرة الأخلاقية لدي أي فيلسوف، فلابد لهذه الفكرة أن تجيب على السؤالين التاليين:

أولًا: هل هذا الفيلسوف يشبه اسبينوزا في فهم وإدراك القاعدة الطبيعية للأخلاق أم أنه يضطرب ويؤمن بالخرافات في هذا الموضوع؟

ثانيًا: كيف يكون هذا الفيلسوف في حسه الأخلاقي إنسانيًا وممثلًا لمفهوم الخير؟[4].

أن الذي جعل سانتيانا يشيد بفلسفة اسبينوزا هو أن سانتيانا رآه واحد من أعظم

(1) Stanford Encyclopedia of Philosophy, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).

(2) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 23.

(3) G. Santayana: Reason in Common Sense, vol I, in: the Life of Reason, Archibal constable, London, 1906, p.205.

(4) G. Santayana: persons and places, op. cit, P. 245.

الرجال الذين نمت شهرتهم بشكل أكثر وضوحًا على مرور السنين، فاسبينوزا مثل الجبل الذي حجب واختفي في بدءه عن الرؤية بسبب هذه التلال الصغيرة التي حالت بينه وبين الظهور[1]. كما أنكر اسبينوزا العلل النهائية أو الأغراض التي تكون للعمل في الطبيعة، وعلى غرار هذا المعني الحسي أنكر اسبينوزا خلود الروح the Immortality of the Soul والإرادة الحرة Free-Will، كما أنكر اسبينوزا المسؤلية الأخلاقية، فالذي جعل اسبينوزا كما يقول سانتيانا يتحول إلى هذه الاتجاهات الأخيرة هو ذلك التجديف الإيجابي الذي جعله يطابق بين الطبيعة والرب[2].

ولقد أكد سانتيانا في العديد من كتبه على أن فلسفته الطبيعية في الأخلاق تعود بالضرورة إلى تأثير فلسفة اسبينوزا الأخلاقية، حيث إن اسبينوزا هو الفيلسوف الوحيد في العصور الحديثة الذي يدخل في عداد المؤمنين بالطبيعة في الفكر الأخلاقي، ذلك الخط الذي بدأ من طاليس حتى ديمقريطس من فلاسفة اليونان، فمن أهم مبادئه أن الأخلاق عبارة عن شيء طبيعي، كما أن الأخلاق نسبية ولا يمكن أن تكون في أي حال من الأحوال أخلاقًا اعتباطية أو غير إلزامية، حيث يتم وضعها والتعرف عليها من أجل الصفات الموروثة لكل إنسان أي من خلال الأشكال المتباينة للفعل والسعادة[3].

كما أن تأثر سانتيانا بأخلاق اسبينوزا جاءه عن طريق ما قرأه فيلسوفنا عنه تحت إشراف رويس، حيث ملأه المتعة والسرور والحماس كما يقول سانتيانا، حيث أخذ منه المذهب Doctrine الذي ظل معه كحقيقة بديهية لفترة طويلة من الزمن، وبالتحديد مشكلة الخير والشر المرتبطة بالعالم أو بطبيعة الحيوان البشري[4].

ولقد رجع اسبينوزا بالإنسان إلى الطبيعة، وجعل منه النواة الرئيسية لجميع القيم الأخلاقية، موضحا كيف يتعرف هذا الإنسان على بيئته وكيف يصبح سيدا عليها، ولكن رأي سانتيانا أن تعاطف اسبينوزا مع الجنس البشري كان ينقصه الخيال، فكل

(1) G. Santayana: Introduction in Spinoza Ethics. J.M. Dent- Son Ltd, London, 1938, P. Vii.
(2) Ibid: P. Vii.
(3) G. Santayana: persons and places, op. cit, P. 244.
(4) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 10.

شيء مشبوبٌ بالعاطفة يبدو إليه أنه ضرب من الجنون، وأن كل شيء بشري يدعو بالضرورة إلى الحزن والأسي عليه، فالإنسان كان على وشك أن يصبح هو ذلك الحيوان الأليف الذي تتلألأ النجوم فوق رأسه، فعوضًا عن الخيال طور اسبينوزا النزعة الأسطورية التي هي بالفعل عبارة عن بديل للخيال[1].

وهذا يعد تحليلًا للقول بأن الفيلسوف الأمريكي جورج سانتيانا قد تأثر في فلسفته الأخلاقية بفلسفة باروخ اسبينوزا، ولا يقتصر التأصيل هنا إلى فلسفة اسبينوزا الأخلاقية كفيلسوف حديث، بل تعدي سانتيانا ذلك إلى الحد الذي جعل أفكاره الأخلاقية عبارة عن صورة لفلسفة جورج إدوارد مور الأخلاقية، وهذا ما يحاول الباحث توضيحه في ثنايا هذه الفكرة الأخلاقية. وذلك على الرغم من اعتراف سانتيانا بأن برتراند رسل لم يستطع أن يرى في الطبيعة أي دعم عقلاني بالنسبة للأخلاقيات، لأنه على الرغم من توقفه على أن يكون رجلً مسيحي، فإنه مازال ينتمي إلى قانون الكنيسة[2].

لقد رأي سانتيانا أن الحكم الأخلاقي ربما يؤدي إلى الوضوح في موضوع فلسفة الأخلاق، وذلك إذا قمنا بتحديد مصطلح الأخلاقية بأنها تعني كل إخلاص فعلي Actual Allegiance في الإحساس الشعوري Sentiment أو الفعل الذي يتطابق مع الحياة المثالية، ونطلق على هذا الإخلاص أو التطابق الذي يتضمنه هذا العلم الوصفي اسم علم الأخلاق Ethics أو علم السلوك the Science of Manner [3]. في حين رأي سانتيانا في موضع آخر أن الانطولوجيا التي هي علم الوجود تبرر وجود النزعة المادية، وهذه الأخيرة تبرر وجود الأخلاق العقلانية والرؤية الجمالية للعقل[4]. ولكن إذا كان ذلك كذلك فإن النزعة المادية كما يقول الفيلسوف محور الدراسة لا تستطيع أن تبرر وجود المثاليات الأخلاقية Moral Ideas بشكل أخلاقي، فالأخلاقية عبارة عن إحساس أو شعور فقط، يمكن أن يتأكد من خلال إحساس أو

(1) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, p. 31.
(2) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 583.
(3) G. Santayana: Realm of Being, op. cit, p. 473.
(4) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 24.

شعور آخر، وذلك بالنسبة لأي شيء يمكن أن يستحق هذا، ولكن هذه النزعة المادية تبرر حياة العقل بشكل مادي على أساس أن العقل هو عبارة عن القوة المهيمنة في الوجود، حيث يوضح سيطرته وقوته المحتملة عليها[1].

أما من وجهة النظر الأخلاقية فإننا نسمي الوسائل العقلية الأساس القاعدي بل وسبب العقل، حيث إن العقل يمكنه أن يتحكم في المادة فقط، وذلك لكون العقل عبارة عن مادة قد تم تنظيمها وتكوينها، ثم اتخذت عدة أشكال مرنة ومتباينة من حيث التنوع والاختلاف[2]. فالمجال الأخلاقي كما يرى سانتيانا قد بدي واضحًا من خلال الطبيعة البشرية، حيث يستطيع كل إنسان أن يجد ذاته من خلال التساؤل السقراطي الذاتي، كما بدي واضحا أيضًا من خلال تعبيرات أفلاطون وأرسطو عن الجنس البشري Mankind في أخلاقهم العقلانية[3]. لذلك تعد هذه الأخلاق بريئة ومتحررة من أية خرافة، فلا يوجد شيء حقيقي يتم إنكاره، وكذلك لا يوجد شيء ممكن يمكن أن يتم استبعاده[4].

إن تأكيد سانتيانا لهذا الأساس الطبيعي في فلسفته الأخلاقية جعل رؤيته الأخلاقية تبدو هي والطبيعة سواء بسواء، حيث ارتدت النزعة الأخلاقية إلى ذلك الأساس المادي، وبالتالي أصبحت الأخلاق صورة من صور الطبيعة المادية، لذلك كانت النظرية الأخلاقية لا يمكن أن تبدأ من «فراغ» أي بمعنى أدق لا تبدأ من «فراغ خلقي»، فمهتها الأساسية هي أن تفسر «الواقع الخلقي»، وإذا كانت النظرية الأخلاقية تهتم بالكون الخلقي كما «ينبغي» له أن يكون، فلا يمكنها بحال أن تبدأ إلا من «العالم الخلقي» باعتباره كذلك ـ أعني أن النظرية الأخلاقية لابد لها أن تبدأ من «الخبرة الخلقية» المعاشة، ومن ثم يكون الديالكتيك الأخلاقي يبدأ من «الخبرة» وينتهي إلى «النظرية الأخلاقية»، أو يبدأ من «الأخلاق» وينتهي إلى «الأخلاق الفلسفية»[5].

(1) Ibid: p.24.
(2) Ibid: p.24.
(3) Ibid: p.25.
(4) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 572.
(5) محمد مدين: الفريد ايونج ـ دراسة في منطق النقد الأخلاقي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999، ص 24.

ولقد أشار سانتيانا إلى ذلك في كتاباته، فقد جاء في المثال الذي قدمه في «العقل في العلم» Reason in Science أنه يرى أن فكرة تكوين الدائرة تأتيني عن طريق فكرة الحلقة Hoop، فقد ألاحظ أن الحلقة تنحرف لأسفل عن طريق دورانها، والتي تختفي بالنسبة للعين، وتبدأ تدريجيًا في الابتعاد عني، فمن خلال ما سبق فإنني أستطيع استنباط فكرة الدائرة الرياضية والتي تبدو جميع أقطارها متساوية تماما مع أقطار الدائرة غير المتساوية، وذلك عندما تبدأ الحلقة المتعرجة في القيام بدورها، ومع ذلك ربما لا يتفق تحديد الدائرة مع تحديد الحلقة بأي شكل من الأشكال[1].

لذلك عندما تكون الفكرة التي يقوم الجدل[2] بتطويرها عبارة عن فكرة أخلاقية، بالإضافة إلى كونها تعبر عن غرض ملموس لشيء ما في هذا العالم المادي، فحينئذ يلعب الغموض Lemmas دورًا مهمًا وضروريًا من خلال الخبرة في هذه العملية[3]. لذلك رأي سانتيانا أن العقل يمكن أن يكون بمفرده عقلانيًا، ولكن ليس معنى ذلك أن يكون العقل بمفرده هو الشيء الخير Good وذلك لأن معيار القيمة هو دائمًا صوت الطبيعة التي يتم استشارتها بشكل حقيقي في ذلك الشخص الذي يتحدث أو يتكلم[4].

إن تأكيد سانتيانا على ضرورة فلسفة الأخلاق والقيم جعلته واحدًا من أعظم

(1) G. Santayana: Reason in Science, vol V, in: the Life of Reason, Coller Books, New York, 1962, p.151.
- Look also - Max H. Fisch: Classic American philosophers, Appleton Century Crofts, New York, 1951, p.279.

(2) «الجدل» Dialectic ـ يمكننا عن طريق الاشتقاق اللغوي لهذه الكلمة أن نفهم معنيين للجدل، فهي تعني أولًا: فن الكلام، لا الكلام الذي يؤثر ويقنع ـ إذ أن هذا موضوع البلاغة، إنما الكلام الذي يجعلنا نفهم ونبرهن، كما أنها تعني ثانيا: فن المناقشة حيث تتضمن فن البرهان وفن دحض كلام الخصم، كما أن الجدل وثيق الصلة بالمنطق، حيث يدل المنطق على نظرية التفكير العقلي، في حين أن الجدل يقوم على فن ضبط معرفتنا بالقواعد المنطقية في سياق المناقشة.
انظر ـ محمد فتحي عبد الله: الجدل بين أرسطو وكانط ـ دراسة مقارنة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 1995م، ص ص 9،10.

(3) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, p.151.
- Look also - Max H. Fisch: Classic American philosophers, op. cit, p.279.

(4) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 563.

فلاسفة الأخلاق في القرن العشرين، وإن كانت نظريته الأخلاقية قد جاءت متأصلة من عدة فلسفات أخر، فإن هذا لا يقلل من كون فيلسوفنا فيلسوفًا أخلاقيًا طبيعيًا، في حين ظهرت اتجاهات فلسفية في بدايات القرن العشرين، حاولت دحض Refutation نظرية القيم، وبخاصة كل من فلسفتي الأخلاق والجمال، وكانت أهم هذه الاتجاهات هو الاتجاه الذي أرسي دعائمه مورتس شليك المسمي بالوضعية المنطقية[1] posi-tivism Logical أو الوضعية الجديدة، حيث زعمت هذه المدرسة أن أحكام القيمة مستحيلة وذلك على أساس التحليل التجريبي الجديد للمعني والمعرفة[2]. كما أن العلوم المعيارية عند روادها لا تؤسس معرفة على الإطلاق، وذلك بالمعني الدقيق للمعرفة، فإن تحليل اللغة، أعني «ماذا نعني؟» يبين أن ما ندعوه بأحكام القيمة ليست أحكامًا، وإنما هي مجرد تعبيرات عن الشعور[3].

إن ما ينطبق على أحكام القيمة بصفة عامة ينطبق بالضرورة على الأحكام الأخلاقية

(1) الوضعية المنطقية (positivism Logical): مصطلح مرادف للتجريبية العلمية، وتشير كلمة الوضعية positive إلى مذهب فلسفي بلغ قمة إزدهاره في فرنسا في أواسط القرن التاسع عشر على يد الفيلسوف ـ أوجست كونت (1798-1859).

وخلاصة دعوته ـ أن النظرة العلمية الحديثة تفضي إلى أن تنحصر رؤية الباحث العلمي في حدود ما هو واقعي، أي في حدود ما هو ظاهر لأعضاء الحس وأدوات التجربة، ويرى «كونت» أن العقل البشري في تطوره قد مر بثلاث مراحل حتى وصل إلى المرحلة الوضعية أو العلمية، أولى هذه المراحل هي المرحلة اللاهوتية، أما الثانية فكانت المرحلة الميتافيزيقية، والمرحلة الثالثة هي المرحلة العلمية أو الوضعية.

أما عن كلمة «المنطقية» المضافة إلى كلمة الوضعية في عنوان الحركة الفلسفية المشار إليها، فهي تحليل البناء اللفظي للعبارة المقولة عن إحدي ظواهر الطبيعة، وذلك قبل مراجعة الظواهر الطبيعية لمعرفة الصواب والخطأ فيما يقال عن تلك الظواهر، لأنه بالنظر إلى البناء اللفظي واحتكامًا إلى منطق اللغة ودلالتها يمكن الحكم على العبارة المعنية، إن كانت مقبولة لكونها ذات معنى يستحق البحث، أم مرفوضة لكونها غير ذات معنى، وبالتالي فهي ليست جديرة بمراجعتها على الطبيعة.

انظر ـ محمد فتحي عبد الله: التجريبية العلمية عند زكي نجيب محمود، بحث منشور في الكتاب التذكاري ـ زكي نجيب محمود ـ مفكرًا عربيًا ورائدًا للاتجاه العلمي التنويري: تصدير/ عاطف العراقي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2005، ص 531.

(٢) هشام شرابي: مشكلة القيم في فلسفة هارتمان ولويس، ترجمة وتقديم / محمد مدين، دار الثقافة العربية، القاهرة، 2001، ص 54.

(٣) المرجع السابق: ص 55.

بصفة خاصة، فقد قامت الوضعية المنطقية برفض الأحكام الأخلاقية رفضًا باتًا لأنهم يرون أنها لا تنطوي على ألفاظ تشير إلى أشياء يمكن إدراكها عن طريق الحواس في نطاق التجربة المباشرة، كما أنها تستخدم مفاهيمًا غامضة لا تقبل التحليل[1]. بل أن العبارات الخلقية أو القيمية بوجه عام ـ عند «آير»[2] Ayer ـ لا تصف شيئًا، بل ليست عبارات على الإطلاق. وهي إن تحرينا الدقة، عبارات وقضايا غير صحيحة، كما أن الدليل الخلقي ليس برهانًا صوريًا أوعلميًا على السواء[3]. بل ذهب الأستاذ الفريد آير إلى أن قضايا الأخلاق وعباراتها لا توصف بالصدق ولا بالكذب، لأنها أوامر في صيغ مضللة، أو تعبيرات عن انفعالات نفسية، وهي كلام فارغ يشبه ثرثرة الطفل الصغير التي يعبر بها عن دوافعه ووجداناته[4]. في حين رأي «كارناب» أن كل كلمات القيمة هي كلمات ظاهرية، أو هي كلمات غير حقيقية، وأن كل القضايا المركبة من مثل هذه الكلمات هي من ثم قضايا ظاهرية، أو زائفة وغير حقيقية[5].

أما عن علاقة سانتيانا بفلسفة جورج مور الأخلاقية، فقد صاغها «اسبيريج» في كتابه القيم عن فلسفة سانتيانا، فقد رأي «اسبيريج» أن فلاسفة الأخلاق قد أكدوا منذ أن نشر مور كتابه مبادئ الأخلاق Principa Ethica على أهمية التمييز والتفرقة بين كل من الأخلاق التحليلية Analytical Ethics والأخلاق المعيارية Normative Ethics وذلك على الرغم من أن مور لم يكن لديه المصطلحات الكافية والمعتادة لكي يميز بين هذين النوعين من الأخلاقيات، إلا أن سانتيانا قد أظهر نفسه بأنه على وعي ومعرفة تامة بذلك التناقض، حيث أصر سانتيانا على أن المعالجة الصحيحة

(1) زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية، مكتبة مصر، القاهرة، 1975، ص 68.

(2) هو «الفريد جولس آير» (1910- 1988) A. J. Ayer ـ من أهم فلاسفة القرن العشرين، بدأ كأكثر المتحمسين للوضعية المنطقية، وبعيدًا عن الاختلافات الجزئية بين فلاسفتها ومحدثًا لبعض التطورات في هذه الملامح، وهي ما ميزته وجعلت منه أفضل متحدث باسمها.
انظر ـ الفريد جولس آير: الفلسفة في القرن العشرين، ترجمة / بهاء درويش، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2006م، ص ص 11،10.

(3) صلاح قنصوة: نظرية القيم في الفكر المعاصر، مكتبة دار الكلمة، الطبعة الثالثة، القاهرة، 2002، ص22.

(4) توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق ـ نشأتها وتطورها، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، القاهرة، 1985م، ص 22.

(5) هشام شرابي: مشكلة القيم في فلسفة هارتمان ولويس، مرجع سابق، ص 56.

للأخلاق التحليلية سوف تظهر أن الأخلاق المعيارية تبدو أخلاقًا ذاتية، أو شخصية تحاول أن تجد لها مكانًا داخل النسق الفلسفي، ولهذا فإن أعمال سانتيانا تنتمي إلى هذه الأخلاق التحليلية، وعليها نستطيع أن نصنف سانتيانا ونضعه بين هؤلاء الفلاسفة التحليليين بالمعني الكلي لذلك المصطلح، وسط هذا العالم المتحدث باللغة الإنجليزية[1].

ولذلك كان الجزء الأعظم في فلسفة سانتيانا الأخلاقية هو الجزء المتعلق بالتحليل Analyse [2]. ولكن كان تعامل سانتيانا مع تساؤلات الأخلاق التحليلية من منظور ضيق، تلك التي ندعوها بالميتاأخلاق Meta-Ethics ويظهر ذلك في تعليقاته الأنطولوجية على الخير والشر، والتي يمكن صياغتها على أنها مختصة بمعنى الخير وكذلك معنى الشر، وذلك فيما يبدو أنه يشبه جورج مور بدرجة كبيرة في نظريته الخاصة عن الخير[3].

وهنا لابد من التفرقة بين نظرية «ميتا أخلاقية» Meta-Ethics، ونظرية «ميتا خلقية» Meta-moral. ولكي تكون الفكرة أكثر وضوحا، فإن ما نعنيه بكلمة «Eth-ics» وهي تعني الأخلاق، حيث تستخدم عندما يتعلق الأمر بالتحليل والميتاأخلاق، أما كلمة Moral وتعني خلقي حيث تتعلق بالأحكام المعيارية، ومن ثم تكون صلتها بالسلوك[4]. وبصفة خاصة تعني الميتاأخلاق التي ينتمي إليها كل من سانتيانا ومور أية نظرية تحاول تعريف أو وصف الأسلوب أو الأساليب التي تستخدم فيها الأحكام الخلقية بالفعل Actual، وذلك عن طريق وصف وظيفة المحمولات الأخلاقية، أو بمعنى أوسع من خلال وصف وظيفة الأحكام الخلقية في الجدل الإنساني[5].

ويبدو تأثر سانتيانا بمور في أن الأول يشير إلى الثاني من وقت لآخر في كتاباته

(1) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.188.
(2) Ibid: p.189.
(3) Ibid: p.189.
(4) محمد مدين: جورج إدوارد مور ـ بحث في منطق التصورات الأخلاقية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999م، ص 109.
(5) المرجع السابق: ص 106.

الأخلاقية، كما أن المبدأ الحدسي الذي يناقشه سانتيانا، ويحاول أن يطور رؤيته في الأخلاق يكون أكثر شبهًا بطريقة مور النموذجية أكثر من قربه لرسل، ولذلك يشار إلى سانتيانا على أنه واحد من أتباع النزعة المورية Moorean [1]. وهكذا بدأت نظرية سانتيانا الأخلاقية على أساس كونها طبيعية النزعة متأثرة في ذلك بفلسفة باروخ اسبينوزا الفيلسوف الهولندي، وانتهت باعتبارها نظرية ميتاأخلاقية تحاول أن تحلل الخيرية Goodness متأثرة في ذلك بنظرية الفيلسوف الإنجليزي جورج إدوارد مور الأخلاقية.

ثانيًا: الخيرية موضوع علم الأخلاق

عندما كان المنهج المستخدم في فلسفة سانتيانا الأخلاقية هو منهج الميتاأخلاق الذي يعتمد بدوره على تحليل مفهوم الخيرية الأخلاقية Ethical Goodness والذي سبق أن استخدمه الفيلسوف الإنجليزي جورج مـــور في نظريته الأخلاقية، هذا قد جعل المسمار يضرب على الرأس وذلك على حد تعبير سانتيانا في دفاعه عن نفسه[2]. حيث فتح الباب أمام الكثير من الكتاب المعاصرين في أن يرجعوا نظرية سانتيانا برمتها في فهم طبيعة الخيرية الأخلاقية إلى نظرية جورج مور، فقال «اسبيريج»[3] أن سانتيانا الفيلسوف الطبيعي الأخلاقي Ethical naturalist الذي يعد واحدًا من أتباع النزعة المورية، يتفق مع نظرية مور الأخلاقية في عنصرين هامين:

الأول: أن الأفعال الخيرة فقط هي التي تعبر عن الخير في حد ذاتها.

الثاني: أن الخير صفة غير محددة حيث يمكن أن نواجهه عن طريق الحدس.

ولقد عبر عن ذلك أيضًا «ارفنج سنجر» حيث رأي سنجر أن سانتيانا أخذ بتعريف كل من مور ورسل لكلمة الخير في كونها عبارة عن صفة واضحة وبسيطة وغير قابلة للتعريف أو التحليل، ولكن أبقي كل من مور ورسل على آرائهم في كون التعريف

(1) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p. 188.
(2) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 504.
(3) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, pp. 189, 190.

المقدم لكلمة الخير Good تعريف مزعوم حيث تعني الكلمة لديهم المرغوب فيه، أو أنها تعني البهجة والفرح والسرور، كما أن هذه التعريفات ربما تكون عبارة عن اشارات ودلالات للأشياء التي تسمي خيرة بدلًا من كونها تعريفات للأشياء الخيرة في ذاتها[1]، في حين أقر سانتيانا بنفسه بأن رسل يشبه جورج مور في اصراره على أن مفهوم الخير غير قابل للتعريف، ومن خلال ذلك استنتج سانتيانا بأن الخير والشر عبارة عن صفات تستخدم لوصف الأشياء بشكل له استقلالية عن آرائنا الخاصة[2].

بما أن الخير يعد في نظر «مور» هو الحد الأساسي للأخلاق، والتصور الوحيد الذي يساعد في تمييز الأخلاق عن كل دراسة أخرى، فإن ذلك يقودنا إلى أهمية أن تُعرف الأخلاق بالإشارة إلى موضوع الفكر «البسيط» «غير الممكن للتعريف» «غير القابل للتحليل»[3]، وعليها تكون الأخلاق عند هؤلاء الفلاسفة الثلاثة «سانتيانا»، «مور»، «رسل» هي الدراسة المباشرة لقيمة الخير[4].

وهنا نتساءل.. ما الذي يقصده سانتيانا بمفهوم الخير الأخلاقي؟

بالنسبة لمفهوم الخير فيما يقول سانتيانا فإننا ربما قد نسأل أي شخص ما الذي يعنيه الخير Good في أي لحظة، أو ما الذي يعنيه أي شخص بالخير في تفكيره وعقله، أو ما الذي يتفق عليه البشر لكي يعبروا عن الخير، أو ما الذي يريده الله بكلمة الخير؟ إنه لا يهم فيما يقول الفيلسوف محل الدراسة أن يكون الخير هو ما يعتقد به البشر، أو أن يكون الخير الحقيقي true good هو الشيء الذي لا يطلق عليه أي إنسان بأنه الخير، أو حتى كونهم لا يعرفون عنه أي شيء. ولكن الخير هو ذلك الشيء الذي ليست له صفات، أو خصائص، أو علاقة متوقعة سوى أنه عبارة عن خير بسيط It is simply good [5].

إن الذي تطلبه الأخلاق ليس هو لماذا يسمي شيء ما أنه خير، فسواء كان هذا

(1) Irving Singer: Santayana›s Aesthetics, op. cit P. 35.
(2) Ibid: P. 35.

(3) محمد مدين: جورج إدوارد مور، مرجع سابق، ص 102.
(4) المرجع السابق: ص 106.

(5) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, p. 153.
- Look also - Max H. Fisch: Classic American philosophers, op. cit, p.299.

الشيء خيرا أم لا، أو كان صوابًا أم لا فإن ذلك يعد من الاحترام والاعتبار في كون الخيرية Goodness بهذا المعني المثالي ليست مجرد مسألة رؤية أو وجهة نظر، ولكن هي مسألة طبيعية[1]. فلكي يتم الحصول على الخير الأعظم a highest good بشكل منعزل عن كل صفة محددة، فإنه حينئذ يكون أكثر من تلك الأشياء التي لا يمكن السعي وراء الحصول عليها أو أن يكون الخير عبارة عن شيء لا يمكن التفكير فيه unthinkable [2].

ولكن..... إذا كان سانتيانا يصر على طبيعية الخير الأخلاقي فمن أين جاءته النزعة التحليلية المورية التي أصر عليها الباحثون في فلسفته؟

أن الخير يكون عند افتراض ذلك الأسلوب المنطقي والأخلاقي، فهو ليس المقصود منه ما الذي يعد خيرا؟، ولكن ما الذي يكون أو ما الذي ينبغي أن يكون ought to be خيرا، وذلك لأن النية أو القصدية Intent لا يوجد تحتها حكم خلقي تؤسس معيارها عليه. فالعلم المثالي يبدأ من هذا الأساس ولا يستطيع أن يذهب خلف ذلك ليسأل لماذا يعد الخير الواضح والصريح obvious good خيرا على الإطلاق، فطبيعيًا هناك سببٌ لذلك، ولكن ليس هذا السبب خلقيًا، وذلك لأن العلم المثالي يقبع ضمن العادة الفيزيقية وكذلك ضرورات الأشياء[3].

ومن ناحية أخرى، فإننا لا نستطيع أن ندرك ونفهم الخير ولكن لا نسعي إلى إدراكه من مسافة بعيدة، حيث يعبر الخير حينئذ عن تلك المتعة والنشوة في اللحظة المعاشة، وهو في هذه الحالة يكون معبرًا عن علم الجمال الحسي sense aesthetic [4]، فالخير عند سانتيانا هو الخير فقط، وذلك لأن كل خاصية من خصائص الحياة والطموح aspiration تتوجه إليه بشكل تلقائي[5].

من خلال ما سبق نستطيع أن نستنتج أن الأخلاق عند سانتيانا تعتمد على تحليل

(1) Ibid: p. 154.
- Look also - Max H. Fisch: Classic American philosophers, op. cit, p. 299.
(2) G. Santayana: Little Essays, op. cit,p. 215.
(3) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, p. 154.
- Look also - Max H. Fisch: Classic American philosophers, op. cit, p. 300.
(4) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 20.
(5) Ibid: P. 22.

(الخير الطبيعي) في الفلسفة الأخلاقية، فهي فلسفة لا تعتني بالسلوك أو وصف السلوك، ولكن تهتم بتحليل الخير وهذا ما جعل سانتيانا يشبه «جورج مور»، فمن يظن أن هناك تعارضًا في تحليل الخير بينهم أو بين «رسل» فقد خاب ظنه، وذلك لأن مفهوم الأخلاق عند سانتيانا يقبع في النزعة الطبيعية المادية، فالطبيعة عنده هي أساس فلسفته الأخلاقية وإن كان هذا المبدأ الطبيعي في تفسير الأخلاق مستمدًا من «اسبينوزا»، فإن سانتيانا حاول أن يحلل فكرة الخيرية مستخدمًا في ذلك المنهج «الميتا أخـلاقي» ولكن أخلاقه العامة مؤسسة على النزعة الطبيعية، من هنا يكون الاتجاه الغالب على فلسفة الأخـلاق عند سانتيانا هو الاتجاه الطبيعي المستمد من اسبينوزا، أما المنهج المستخدم في فهم وادراك الخيرية الأخلاقية هو منهج التحليل الذي جعل سانتيانا يعد واحدًا من اتباع «مور».

إذا كان سانتيانا اتفق مع كل من «مور» و«رسل» في تصور الخير الخلقي، إلا أن سانتيانا قد اختلف مع كل من «جون ديوي»، و«كلارنس ارفنج لويس» في طبيعة الخبرة القيمية، ونتيجة لذلك جاءت آراؤهم عن الخيرية متنوعة إلى حد ما، وذلك على الرغم من كونهم جميعًا على اتفاق عام في كون القيمة عبارة عن صفة غير قابلة للتعريف، بالإضافة إلى كونها كلمة بسيطة[1].

والحق أن أقول هنا أن «جورج مور» هو صاحب الفضل الأول في إرساء دعائم الخير الأخلاقي على كل من «سانتيانا» و«رسل»، وإن لم يعترف سانتيانا بذلك في كتبه، ولكن فضَّل سانتيانا الإشارة إلى «مور» من بعيد.

ولكن اعترف رسل بأنه في الفترة المبكرة التي كان متأثرا فيها بمور بأنه يدين له بأفكاره الأخلاقية، فقد كان «مور» رائده في الخروج على المثالية، فهو لم يسايره فقط في قبول اعتقادات الفهم المشترك المتعلقة بالواقعي، إنما سايره في الاعتقاد بأن «الخير» لا يعرف وأنه يشير إلى كيفية غير ممكنة التعريف تدرك بالحدس، وأيضا إمكانية اكتشاف قضايا أولانية apriori عامة تخص أنواع الأشياء الخيرة على الأصالة، فكما قارن مور بين «الخيرية» واللون الأصفر، وقارن رسل بين «الخيرية» واللون

(1) Irving Singer: Santayana›s Aesthetics, op. cit P. 54.

الأحمر[1]، فإن سانتيانا هو الآخر قد قارن بين «الخيرية» واللون الأخضر من حيث كون اللون عبارة عن صفة غير قابلة للتعريف[2].

والحق أن «رسل» بدأ بحثه بنفس التساؤلات التي بدأ بها «مـور» البرنكيبيا، ويرى أنها ضرورية لأي أخلاق نظرية تريد أن تكون علما. وهذه التساؤلات تتعلق بطبيعة البحث الأخلاقي والموضوعات المشروعة والمهمة التي ينبغي أن يجيب عليها «الأخلاقي» باعتباره باحثا نظريا، وينتهي رسل من هذا إلى أنه بالرغم من أن الأخلاق ينظر لها على أنها ـ بوجه عام ـ تتناول السلوك الإنساني الخير والشرير، فإنها «نظرية» أكثر من كونها «عملية» وذلك نظرًا لأن الحاجة الأساسية في الأخلاق هي الوضوح المتعلق بمعنى «الخير» و«السيئ»[3].

والقصد من ذلك أن علم الأخلاق علم نظري بحت، فهو حين يبحث ما يبحثه فإنه لا يكون بصدد «تطبيق» أو «عمل» بل بصدد «بحث» أو «نظر» ـ فلا شأن للأخلاق بالسلوك الذي يقوم به الشخص، ولا مجال للحديث عن أثر ما تقوله الأخلاق في مثل هذا السلوك، فالسلوك شيء وعلم الأخلاق شيء أخر، وكذلك فإن المرء يمكنه أن يحيا حياة خيرة دون أن يدرس علم الأخلاق[4]. وإن كان ذلك لا يقلل من شأن فلسفة الأخلاق حيث أنها مرشدنا ودليلنا لكي نفكر في الأخلاق، لأننا نحن الذين نصنع حالة نفسية متميزة، فهي تعطينا الرسم المنظوري للتفكير والأفعال، وتجعله أفضل إنعكاسًا في كل مكان، كما تعمل على تحسين التفكير[5].

لقد قام باحثو الموسوعة الفلسفية ستانفورد بتحليل فلسفة سانتيانا في فهم الخيرية، وانتهوا إلى وجود دعامتين رئيسيتين في فلسفته الأخلاقية وهما:

(1) أن أشكال وصور الخير مختلفة ومتنوعة.

(1) محمد مدين: جورج إدوارد مور، مرجع سابق، ص 105.

(2) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, pp.190, 194.

(3) محمد مدين: جورج إدوارد مور، مرجع سابق، ص 105.

(4) محمد مهران رشوان: تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص 23.

(5) Harry J. Gensler: Ethics, London and New York. 1998. p. 56.

(2) أن الخيرَ بالنسبة لكل حيوان محدد ومعروفٌ[1].

حيث إن المنطقة الأخلاقية عند الحيوانات ينظر إليها من منظور محايد، فهي تضع كلَّ الاهتمامات الحيوانية والخيرات الإنسانية بشكل متساو، حيث إن كل خير يبرز من خلال الصفات الوراثية الطبيعية، كما أنه يتشكل من خلال ملائمته وتكيفه مع البيئة. ومن خلال الاستنتاج القائل بأن أشكال الخير مختلفة ومتنوعة، فإن سانتيانا يصر على أن الخير ربما يختلف بالنسبة لكل حيوان، حيث يعتمد الخير على طبيعة العقل، وكذلك الظروف المحيطة به، بل ربما يختلف الخير عند أي حيوان فردي آخر في أوقات مختلفة وبيئات مختلفة، حيث لا يوجد خير واحد للكل أو حتى للفرد[2].

أما الفكرة الأخلاقية الثانية عند سانتيانا وهي أنه من أجل كل حيوان يكون الخير محددا ونهائيًا، وذلك حيث توجد خيرات محدودة ومعينة لكل حيوان يعتمد على هذه الصفات الموروثة والاهتمامات العقلية، كما يعتمد أيضا على الظروف البيئية المحددة. عندئذ تكون المعرفة الذاتية هي العلامة الأخلاقية المميزة، فهي المدي الذي يعرف به الفرد اهتماماته الفردية من حيث تعقيداتها ومركزيتها، وبذلك سوف تتحدد اهتمامات الفرد من حيث استطاعته في أن يحقق حياة كريمة، شرط أن تكون هناك البيئة الملائمة والمناسبة لذلك[3].

وبعد أن انتهيت من مناقشة الخيرية الأخلاقية عند الفيلسوف محل الدراسة، فإن الرؤية التي قدمها لم تخل من النقد والتقليد، حيث رأي «اسبيريج» أن هناك الكثير من الحكمة في نسبية سانتيانا الأخلاقية، حيث يعمل فيها على التقريب بين وجهات النظر المختلفة، وذلك حتى تكون نتيجته الرئيسية متماسكة، ومع ذلك فإن نظرية سانتيانا الأخلاقية تفتقر إلى الكمال، كما يظهر فيها الغموض والإبهام في بعض جوانبها كالتالي:

(1) Stanford Encyclopedia of Philosophy, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).
(2) Ibid: at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).
(3) Ibid: at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).

في العلاقة بين «الخير» و«الشر» حيث استخدم كلمة «الشر» evil بالمعني العام أو بالمفهوم الكلي، ولم يستخدمها لكي يشير بها إلى الوسطاء الشريرين أو الخبثاء هذا من ناحية، والصواب والخطأ والواجب من ناحية أخرى. حيث كان ذلك موضوعا لجدال عميق ومناقشات حادة عند كل من «مور» في مذهب المنفعة المثالي، ونظرية الواجب عند «روس» W.D.Ross حيث يمثلان طرفي النقيض.

يصف سانتيانا «الخير» و«الشر» بصفات نسبية، ومن خلال ذلك يقصد سانتيانا بهذه النسبية تلك الصفات التي ترتديها بعض الأشياء، ولا تكن هذه الصفات ضرورية بالنسبة لمجموع الأشياء الأخرى، إذ أن الخير والشر مفاهيم كلية تنطبق على واقع جزئي.

اقتراح بأن تكون نظرية سانتيانا الأخلاقية قد وقعت تحت تأثير نظرية «مور» الأخلاقية، وهي استخدام الحق في تقييم الظواهر[1].

وهكذا بدت نظرية سانتيانا في فهم وإدراك الخيرية الأخلاقية نظرية مورية تحليلية، وان كان سانتيانا لم يشر إلى تأثره بهذه الفكرة في كتاباته، ولكن أشار إلى فلسفة مور الأخلاقية كفلسفة من أهم الفلسفات المعاصرة على حد تعبير «اسبيريج»، وعليها أصبحت قضايا الخير واضحة بذاتها عند كليهما، إلا أن الفرق الأساسي بين الفيلسوفين هو أن سانتيانا أقام أساس القيمة الأخلاقية على نزعته الطبيعية المادية، بينما أقامه مور على نزعته المنطقية التحليلية، وقد سايره في ذلك شيخ الفلاسفة المعاصرين «برتراند رسل».

ثالثًا: نسبية القيمة الأخلاقية

تنبع الحكمة من كلمات جورج سانتيانا كما تنبع أيضًا من خلال كلماته وسطوره الموجودة داخل فلسفته الجوهرية أكثر من أي شيء آخر تحدث عنه سانتيانا بوضوح، مما لا يتيسر ذلك لأي فلسفة آخري ينقصها الوضوح واليقين. وقد بدي ذلك واضحًا

(1) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, pp.193,194.

كحقيقة خاصة في نظريته الخاصة عن القيمة[1] Value وذلك لأن جل فلسفته تتحدث عن القيمة، أو لكونها تتعلق بتوزيع هذه القيم بين الأشياء[2].

لقد رأي سانتيانا أن مصدر القيمة ليس شيئًا في حد ذاته، ولكنه يعبر عن الينبوع الداخلي للحياة والخيال، وأن الموضوع الذي نسعي له لا يمثل شيئًا، ولكنه يعبر عن الموضوع المثالي[3]. فإذا كانت كل من المسيحية والنزعة الرومانسية قد جعلت الناس تهمل وتتغاضي عن القيمة الحقيقية للأشياء، فالأشياء ينبغي أن تكون صالحة من أجل ذلك الخلاص Salvation أو أن تكون عبارة عن رموز Symbols لأشياء بديهية وغير معروفة أعظم منها في الشأن، فإنه لم يكن من المتوقع أن تكون هذه الأشياء عبارة عن أشياء خيرة وبسيطة في حد ذاتها. فإذا لم يتحقق بعض من هذه النهايات الخارجية والخفية عن طريق الكائنات الحية، فإنه من المتوقع أن تكون الحياة عبارة عن هراء أو شيء فارغ وأن تختفي القيمة الأصلية من هذا الوجود الأرضي[4].

ولذلك كانت مبادئ (الإلزام الخلقية) تحمل هذه العلاقة الهامة من حيث تحقيق الرفاهية العامة أو تحقيق السعادة، من حيث كون الفضيلة هي الشجاعة بالنسبة للجندي، وكذلك الأمانة Probity هي الفضيلة عند التاجر، وتكون العفة هي فضيلة المرأة، ولكن إذا تحولنا أو ابتعدنا عن هذه المبادئ الخلقية التي ينظر إليها الجميع على أنها الأساس التام والبناء المثالي للحياة الكريمة، فإننا حينئذ لا نجد ذلك

(1) إن مصطلح»قيمة» Value ـ آتي إلى مجال فلسفة الأخلاق عن طريق علم الاقتصاد، وقد استخدمت كلمة «قيمة» في الاقتصاد بالمعاني الآتية:

1 ـ قيمة الاستعمال أو القيمة المستخدمة، أي قدرة الموضوع على إشباع حاجة أو رغبة إنسانية.

2 ـ قيمة التبادل، وتقوم في العصر الحاضر على أساس تحديد قيمة السلعة بالمال.

انظر ـ وليام ليلي: مقدمة في علم الأخلاق، ترجمة وتقديم وتعليق/ على عبد المعطي محمد، منشأة المعارف، الاسكندرية، 2000، ص 333.

وانظر أيضا ـ على عبد المعطي محمد: دراسات في الفلسفة العامة ومشكلاتها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991م، ص 333.

(2) Stephen C. Pepper: Santayana's Theory of Value, in: The Philosophy of George Santayana , Edited by, Paul Arthur Schilpp, Tudor publishing company, New York, 1951,P. 219.

(3) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, p.237.

(4) G. Santayana: Little Essays, op. cit,p.214.

التطابق والوئام الذي يكون متضمنًا هذه العلاقة بين الصفة والموصوف، كما أن حب الذات الإنسانية يظهر في هذه الحالة بشكل متذبذب حيث ينسب هذه الصفات أو هذه القيمة غير العقلانية أو هذه الصفة المطلقة إلى شخصيات من الممكن أن تكون في حالة عواطف حالمة[1].

ومن خلال إصرار سانتيانا على وجود القيمة الأصلية في الحياة الإنسانية، يجعل التساؤلات تتبادر إلى الذهن من حيث كون القيمة ذاتها (نسبية أم مطلقة)، وكذلك هل هذه القيمة الأخلاقية تتحدد من خلال الطبيعة الحيوانية؟ أم هي قيمة مثالية مثل القيم التي نادت بها المسيحية والنزعة الرومانسية من قبل؟ وما العلاقة بين اللذة والألم في فلسفة سانتيانا الأخلاقية؟

لقد أقرت الموسوعة الفلسفية (ستانفورد) أن فلسفة سانتيانا الأخلاقية مؤسسة على نزعته الطبيعية، حيث صنف معظم المعلقين على فلسفة سانتيانا، أنه كان فيلسوفًا صارم النسبية الأخلاقية an extreme moral relativist حيث أصر على أن جميع النظريات والأفكار الأخلاقية الفردية لديها مكانة متساوية، كما أنها مؤسسة على الخصائص الموروثة، وكذلك الظروف البيئية المحيطة بالفرد[2]. وهذا الاتجاه الطبيعي الذي ينادي به سانتيانا ينطبق على جميع الكائنات الحية، فالطبيعة لا تؤسس أو تبني هرمًا أخلاقيًا من الخيرات أو الفضائل سواء بين المجاميع الحيوانية Animal populations أو بين الحيوانات الفردية Individual Animals وعلى الرغم من ذلك أيضًا أرسي سانتيانا دعائم نسبيته الأخلاقية على أن الخير عند الحيوانات الفردية واضحًا كما أنه موضوع للبحث الطبيعي والبيولوجي[3].

إذا كان سانتيانا يؤكد مرة أخرى على أهمية الأساس الطبيعي لفلسفته الأخلاقية، فإن ذلك يقودنا بالضرورة إلى تأثير «اسبينوزا» على فلسفته في القيمة، حيث يقول سانتيانا « أنني تعلمت النسبية الأخلاقية من «اسبينوزا»، حيث كانت هي المبدأ الأول

(1) Ibid: p. 25.
- Look also - G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, p. 250.
(2) Stanford Encyclopedia of Philosophy, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).
(3) Ibid, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).

للكثير من فلسفتي الأخلاقية»[1]. فمن الواجب على المهتمين بعلم الأخلاق أن يفرقوا بين الحقيقة السيئة والحقيقة المختلطة[2].

لذلك يقول سانتيانا «أنا لا املك إلا التفكير في نسبية القيم، فإذا أصبحت تلك القيم عامة ومنتشرة فإنها تتجه لكي تقدم لهؤلاء البشر الشكل الاجتماعي الأفضل أكثر مما يقدمه الاعتقاد الذي يكون لتلك القيم الداخلية وغير المتغيرة. فإذا قلنا بأن هذه الخيرات التي تشمل ذلك التوزيع العادل لهذه الأشياء الطيبة هي نسبية بالنسبة لهذه الطبيعة البشرية المحدودة، فإن التاريخ هو استمرار تلك الحرب الأخلاقية Moral war ولكن هذه الحرب بدون السهام المسمومة»[3].

تعد القيمة في هذا الوجود عبارة عن دافع لهذا الأختيار الذي يعتمد على بعض النماذج الطبيعية[4]. فإن قولنا أن هذا الشيء جميل[5] بالنسبة لذلك الشخص يكون جميلًا بالنسبة لشخص آخر، هو عبارة عن قول لا معنى له ولا تعبير، حيث أنه من الواضح أن هذا النوع من الإلزام يكون من أجل التعرف على نفس الصفات مرهونًا بامتلاك نفس القدرات ونفس المقومات الشخصية، ولكن في الواقع لا يوجد شخصان لديهم نفس المقومات، أو أن تكون الأشياء بالنسبة للاثنين تستطيع أن تكون لديها بالضبط نفس الصفات ونفس القيم، فعندما كانت الطبيعيات البشرية للشخصين مختلفة، فإن الصورة التي تبدو لهذا الشخص غير مرئية وغامضة وغير معروفة، فإنها تكون بالنسبة للشخص الآخر صورة ظاهرة وواضحة ومعروفة[6]. ويتعدي الأمر عند

(1) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 559.

(2) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 11.

(3) G. Santayana: Little Essays, op. cit, p.240.

(4) Stephen C. Pepper: Santayana›s Theory of Value, op. cit, p.221.

(5) يرى الباحث أنه قد يجوز اختيار أمثلة تخص القيم الجمالية عند الحديث عن القيمة الأخلاقية عند سانتيانا، وذلك لأن سانتيانا أثبت كما عرضت في الفصل الثاني من هذا البحث، أن فلسفته الجمالية عبارة عن نظرية واضحة في القيمة، كما أن سانتيانا أصر على قيمتين من هذه القيم الإنسانية المتعددة وهما الجمال والأخلاق وجعل الأولى أساسها النشوة والثانية أساسها التفضيل، وأن كل من القيمتين عند سانتيانا لا تستندان إلى العقل، أما الكثرة في القيم التي جاءت في ثنايا هذا البحث فما هي إلا عبارة عن علاقات لهاتين القيمتين.

(6) G. Santayana: Little Essays, op. cit, p. 241.

سانتيانا إلى أكثر من ذلك، من حيث إن عدم القدرة على تقييم بعض النوعيات أو الكيفيات المعينة لهذا الجمال، ربما يكون هذا الشرط نفسه واضحًا بالنسبة لتقييم نوع آخر من الجمال[1].

وعند جورج سانتيانا نجد أن شتي القيم والاهتمامات عبارة عن تفضيلات غير عقلانية Irrational Preferences وإلى هذا المدي فإن كلًّ من القيم والاهتمامات توضع في إطار حدسي عن طريق وسائل الشعور والحس[2]. لذلك عندما نقوم بمقارنة موضوعات الرغبة البشرية Human desire أو اختبار تجربتهم البشرية عن طريق العقل البشري، فإنها تبدو عبارة عن خليط متنوع لهذه الصفات الخيرة أو الخيرات الأخلاقية، فإن هذه الموضوعات تبدو غير مستقرة في حد ذاتها، كما تكون غير متطابقة مع بعضها البعض[3]. وعليها استنتج سانتيانا بعض الملاحظات حول رؤيته الخاصة للنسبية الأخلاقية، وهي أن الأشياء ليست خيرة أو سيئة في حد ذاتها، ولكن هي كذلك من وجهة نظر فرد واحد، أو من وجهة نظر بعض العقول الخاصة[4].

لذلك كانت نسبية سانتيانا الأخلاقية ليست عبارة عن رأي لفرد واحد، ولكن هي عبارة عن رؤية للطبيعة، ولهذا السبب كانت هذه النسبية غير منفصلة عن نزعته الطبيعية، حيث إن التصور الطبيعي لمفهوم الخير يكون مدروسًا ومفصلًا داخل حدود نظرية النية أو القصدية the Nation of Intent تلك النظرية التي لديها القدرة في أن تتلائم مع هذه العملية النشطة، وتلك الصفة الموجهة بشكل مباشر للحدث[5].

لقد اعتبر سانتيانا أن أساس القيمة الأخلاقية هو التفضيل[6]. والتفضيل هذا عبارة عن واجبٍ كوني أو نداءً باطنيًا، حيث إن كل حيوان يفضل نوع النشاط الذي يرغب فيه وذلك بما يتناسب مع طبيعة الحيوان وأعضائه، ولا يمكن أن يكون ذلك واجبًا

(1) Ibid: p. 242.
(2) Irving Singer: Santayana's Aesthetics, op. cit, P. 72.
(3) G. Santayana: Little Essays, op. cit, p. 241.
(4) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p. 193.
(5) John Magnus Michelsen: The Place of Buddhism in Santayana's Moral Philosophy, at, http://ccbs.ntu.edu.tw/FULLTEXT/JR-ADM/magnus.htm
(6) جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال، مصدر سابق، ص 18.

عليه أو نداء باطنيًا لكي يفضل أي نوع آخر[1]. ومع ذلك ربما قد يتخيل الإنسان أن الشيء الذي يمكن أن يكون مرغوبًا فيه إما أن يكون هذا أو ذاك من طعام وأطفال ومعرفة أو بعض من هذه الأهداف الخاصة بالغريزة البشرية، ولكن توجد هناك سعادة مجردة ودائمة خلف كل الصفات والاهتمامات المتغيرة، ولكن بالطبع تكون هذه السعادة المجردة والدائمة مستحيلة Impossible فهي ليست مستحيلة لكون الأحداث المؤكدة تشوش أي نوعية من التوازن الذي نفكر فيه، أو التوازن Equilibrium الذي نؤسسه في حياتنا، ولكن تكون مستحيلة لسبب أبعد من ذلك وهو أننا لا نملك في حياتنا أي غريزة دائمة ومجردة لكي نرضيها[2].

إن ذلك الربط الذي أقامه فيلسوفنا بين القيمة والرغبة، أو القيمة الأخلاقية والتفضيل يجعله يتفق مع كثير من فلاسفة القيم المحدثين والمعاصرين، حيث عرفت القيمة دائمًا بحسب الرغبة (القيمة ومبدأ الرغبة)، وهو تعريف قديم يقول «بأن الأشياء التي نرغب فيها أو نؤثرها هي وحدها ذات قيمة[3]. وفي ذلك يقول «لوي لافيل» (Louise Lavelle (1951–1883 ـ في كتابه مبحث القيم Traite des Valeure ـ إننا نستخدم كلمة القيمة عندما نريد تفضيل بعض الأشياء على البعض الآخر، وهذا يعني أننا نضع عادة تصنيفًا للأشياء، ونعلي بعضها على بعض، حتى يبدو بعضها أساسيًا، والآخر ثانويًا أو فرعيًا[4]. وعبر عن ذلك «اسبينوزا» بقوله «نحن لا نرغب في شيء لأنه قيم، بل إنه قيم لأننا نرغب فيه» بل إن قيمة الشيء وفقًا لهذه التعريفات تتوقف قدرته على إثارة الرغبة[5]. وأكد هذا القول «بول سيزاري» ـ حيث يرى أن قيمة شيء من الأشياء تتوقف على إمكانية الرغبة فيه، وهذه العلاقة الماثلة بين الشيء والشخص تجعلنا نفهم أن الشخص يرغب في الشيء حقًا[6].

(1) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 584.

(2) G. Santayana: Little Essays, op. cit, p.215.

(3) صلاح الدين رسلان: القيم الأخلاقية بين الذاتية والموضوعية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1989، ص 10.

(4) نازلي إسماعيل حسين: فلسفة القيم، مرجع سابق، ص 13.

(5) صلاح الدين رسلان: القيم الأخلاقية بين الذاتية والموضوعية، ص 10.

(6) بول سيزاري: القيمة، ترجمة/ عادل العوا، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت، 1983، ص6.

ولكن في حالة غياب جميع الإدراكات البشرية، يتم إلغاء وإزالة القيمة من هذا العالم، فالتجرد العنيف من مجموع الحياة الطبيعية يتم من خلاله إدراك ورؤية كينونات من هذا الفكر العقلاني، حيث إن العقول التي فيها تحويلات الأشياء يتم رؤيتها بدون أي عاطفة، فإنه متي اختفي الإدراك كليًا من الحياة الإنسانية، فإن القيم تختفي أيضًا وكذلك التمييز بين الأشياء[1]. لذلك كان الشرط الأساسي للقيمة هو أن يكون ثمة علاقة رابطة بين الإنسان والشيء، إذ لا معنى للقيمة إذا انعزل الشيء انعزالًا تامًا عن الإنسان واهتماماته ومنافعه، وبهذا تكون كلمة «قيمة» اسمًا يطلق على «علاقة»- ولا يطلق على كائن بذاته معين، فهي بذلك شبيهه بأسماء العلاقات كلها، ككلمة «ابن»، مثلًا ـ أو كلمة «يساوي» ـ ليس لهما معنى إلا أن يربطا بين شيء وشيء، فإذا قلت أن لهذا الكتاب قيمة عندي، كان هناك طرفان فقط: الكتاب وشخصي، ارتبطا برباط القيمة[2]. فالقيمة هي اختيار الإنسان، وهذا الإنسان وحده الفاعل القادر على إخراج القيمة، أية قيمة، إلى حيز الوجود الراهن، والنشاط القيمي لا يزيد في جوهره عن أنه نشاط تفضيل أو ترجيح، نشاط واع، وترجيح هادف[3].

تأكيدًا لما سبق ذكره، يرى سانتيانا أنني أهتم بذاتي لأن «ذاتي» هي اسم يدل على جميع الأشياء التي أقدرها واعتز بها، فإذا حاول عالم الأخلاق أن يخلق من هذا الكائن اللفظي ما يسميه الشخصية ويجعلها موضع اهتمام المرء منفصلًا عن الأشياء التي يهتم بها، والتي هي جوهر الشخصية ومضمونها، فإنه بذلك يدعي العلم ويحول علم الأخلاق إلى خرافة، حيث إن الذات التي هي موضوع حب الذات ليست إلا وهمًا من أوهام الجنس البشري، ولكي تستند فكرة الذات إلى أساس من العقل يتحتم تحليلها إلى ما تنطوي عليه من اهتمامات موضوعية أولية[4].

(1) G. Santayana: Little Essays, op. cit, p.215.

(2) رالف بارتن بيري: آفاق القيمة ـ دراسة نقدية للحضارة الإنسانية، ترجمة/ عبد المحسن عاطف سلام، مراجعة / محمد على العريان، تقديم / زكي نجيب محمود، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1968، ص5.

(3) جان بول رزفبر: فلسفة القيم، تعريب / عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، الطبعة الأولى، بيروت، 2001، ص 7.

(4) جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال، مصدر سابق، ص 65.

ولكن.. ما المعيار الذي اتخذه سانتيانا في فلسفة القيم الأخلاقية؟

يرى سانتيانا أن المعيار الوحيد والممكن لمثل هذه القيم النسبية بين اللذات والآلام هو فقط معيار الإرادة the Will حيث أنه المعيار الوحيد الذي لديه قدرة الاختيار أو التوحيد بينهم Combination ولا يمكن لقوة هذه اللذات والآلام أن تجعلهم جزءًا من العنف الطبيعي، بأن يتم الحكم عليها بواسطة أي معيار آخر غير معيار الإرادة، وذلك عندما يتم عرضها لكي تتحكم في حركة الإرادة[1]. كما أن هذه اللذات تكون في مستوى حسي من حيث المستوى المتقلب والشرور غير المقصودة، ولكن جميعًا يكونوا في إطارهم الخاص، كما يكون لديهم قيمتهم الخاصة[2].

فلوضع القيمة في إطار اللذة والألم، مع الأخذ في الاعتبار كمية الألم pain المعطاة، لتكون متوازنة مع كمية اللذة، فإن ذلك عبارة عن استحضار الأخلاق العملية إلى هذا القصد الشريف حتى يكون واضحًا وأكثر دقة وأكثر إخلاصًا، كما يمثل صدقًا غير قابل للشك مما لا يوجد لدي هؤلاء الأخلاقيين الذين يحتفظون بهذه الآراء المتناقضة، ويهتمون بالتهذيب والتنوير أكثر من اهتمامهم بالصدق والحقيقة[3].

وفي حين جعل سانتيانا معيار الإرادة كأساس للقيمة الأخلاقية، نجد من الفلاسفة المعاصرين من جعل معيار المعقولية Reasonableness كأساس للقيمة الأخلاقية مثل «بيرتون بورتر»، حيث أكد بورتر في كتابه (الحياة الكريمة) أن المعيار المتبع في فلسفة الأخلاق هو معيار المعقولية ـ بمعنى أن النظرية الأكثر توافقًا مع العقل يحكم عليها بأنها حقيقية، وزيادة في التخصيص، نقول أن معيار المعقولية يعني ضرورة توافر ثلاثة شروط في النظرية الأخلاقية.

أولًا: توافقها مع نفسها، ومع ما يترتب عليها.

ثانيًا: إرتباطها بالوقائع موضع البحث، وعدم تعارضها معها.

(1) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, p. 239.
(2) Ibid: p. 241.
(3) Ibid: p. 236.

ثالثًا: قدرتها على التزويد بأكثر التفسيرات احتمالًا للتجربة الإنسانية[1].

ولكن أكد سانتيانا على وحدانية معيار القيمة الذي هو الإرادة فيري أن معيار القيمة يجب أن يكون واحدًا، فاللذات والآلام ليست مختلفة فقط بشكل ثابت، ولكن حتى لو اختزلوا إلى مجموعهم الإجمالي وتعارضهم المجرد فإنهم يصبحون أيضًا اثنين، حيث إن قيم كل من المتع والآلام يتم مقارنتها بشكل واضح، ولا يمكن أن يحل معيار إحداهما لكي نحكم به على القيمة الأخرى، فالمعيار standard عبارة عن مثالية متضمنة في ذلك الحكم الذي مضي مهما كان نوع هذا الحكم، فعندما قال[2] «بيترارك» Petrarch «أن آلاف المتع والسرور لا تساوي ألم واحد» فهو بذلك يؤسس مثالية للقيمة Ideal of Value أعمق بكثير من أي متعة أو ألم[3]. ولذلك يتم اكتشاف هذه القيم عند سانتيانا عندما يتم النظر في نسبية الخير الدائم، والذي يبدو أنه نتيجة لمقارنة ظروف الحياة التي تشعرنا بسعادة بعيدة[4].

من هنا تبدو نظرية سانتيانا عن القيمة عبارة عن نظرية في «الاهتمام» Interest وذلك لكونها تعتمد بشكل أساسي على التصنيفات الآلية Mechanistic Categories التي تعتمد على الصفات المفترضة والأساسية للجوهر[5].

رابعًا: الصدق الأخلاقي

إن الصدق في فلسفة الأخلاق السانتيانية ربما يشبه في طبيعته الصدق في أي نوع من أنواع الفلسفة الطبيعية، وبصفة خاصة إذا كان هذا الصدق خصبًا وغنيًا وذو قابلية للاكتشاف، لأنه في هذه الحالة لا يطلب منا أن نقوم بالبحث في الألغاز والأساطير. ولكنه يجعلنا نقبل الوقائع المادية والتاريخية التي على المستوى الإنساني، تلك الوقائع التي يمكن أن نتعامل معها كوحدات units كما تكون ذات قابلية للإرضاء

(1) بيرتون بورتر: الحياة الكريمة، الجزء الأول، مرجع سابق، ص 11.
(2) A Thousand Pleasures are not worth one Pain.
(3) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, pp. 238, 239.
(4) Guy. W. Stroch: American Philosophy from Edwards to Dewey, op. cit, PP. 198,199.
(5) Stephen C. Pepper: Santayana's Theory of Value, op. cit,p. 223.

التام مع الضمير الإنساني الذي يحكم عليها بشكل أخلاقي[1]. وذلك لكون الحياة عند سانتيانا عبارة عن صورة من صور النظام order فهي عبارة عن استجابة ذاتية self-responsive تناغمية كبيرة، ولكنها تظهر في العديد من الأماكن، وتأخذ آلاف من الهيئات والصور[2].

ولكن إذا قام العقل، أو الروح بفرض أية سيطرة أو تأثير أسطوري على أي كائن حي، فإنه يفرض الدوافع المتناقضة على هؤلاء البشر الآخرين أيضًا، وفي هذه الحالة لا يحدث تناسق كوني، وإنما يحدث فناء كوني، فحل المشكلة الأخلاقية يكون فقط من خلال شتي الأشياء الخيرة، وشتي الفنون، وكذلك جميع السلالات البشرية وأفرادها، وذلك لأن الحياة الخلقية قد تأسست من الداخل، ولذلك فإن الصدق الطبيعي هو فقط الوحيد الذي يعبر عن الإرادة التامة[3].

وهنا يرى الباحث أن سانتيانا أكد على أهمية الصدق في فلسفته الأخلاقية بصفة خاصة، بل وفي فلسفته العامة بشكل كلي، ولكن يقف سانتيانا في هذه الحالة على النقيض من الفلاسفة المعاصرين الذين أكدوا على أهمية الصدق من خلال المنطق ونظرية المعرفة، فجاء سانتيانا هنا ليقلب النظرية الأخلاقية رأسًا على عقب ليجعل الصدق الطبيعي الكلاسيكي أساسًا كليًا لفلسفته الأخلاقية، وهذا ما أكد عليه السواد الأعظم من الباحثين الغربيين ممن كان لهم الحظ الأوفر في الاشتغال بحقل الدراسات السانتيانية على المستوى الخاص والعام.

لقد أكد سانتيانا على أن الاهتمامات الأخلاقية للسلالة البشرية تكون مترابطة مع اكتشاف الصدق truth ذاته من حيث كونها ذات ملامح وصفات وخصائص معينة. ولهذا فإن الثقة المسيطرة في الأحكام الأخلاقية تكون في بعض الأحيان مدركة ومعترف بها، لهذا يدعو الفلاسفة العالم ليعتنقوا هذه المعتقدات التي لا يوجد لها أي دليل مقدم، ولكن لينسجموا مع هذه التطلعات الحالية، ولهذا السبب فإن جوهر الأشياء التي يتطلع إليها تصبح حتى في الفلسفة دليل الأشياء التي لا ترى[4].

(1) G. Santayana: Realm of Being, op. cit, pp. 473,474.
(2) Ibid: p. 477.
(3) Ibid: pp. 477,478.
(4) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, pp. 184, 185.

إذا كان سانتيانا يؤكد هنا على أهمية الاتساق والترابط أو الملائمة بين كل من الأحكام الأخلاقية وبين اكتشاف الصدق الأخلاقي فيها، فإن الغرض من ذلك هو أن الفيلسوف محل الدراسة قد جعل السعادة هي الصدق الحقيقي والوحيد للحياة، فمتي فشلت السعادة في الحياة، فإن الوجود يتحول إلى حالة من الهياج والجنون، بل تصبح الحياة عبارة عن تجربة يرثي لها[1].

ولذلك تبدو أهمية الاتساق أو التوافق فيما يتعلق بالنظرية الأخلاقية هو أن يكون معيار الصدق في الحكم الأخلاقي، سواء كنا نفكر في حكم أخلاقي يعبر عن نظرية أخلاقية عامة أو قرار خاص في الحياة العملية، هو السؤال عما إذا كان هذا الحكم «يتسق» مع أحكامنا الأخلاقية الأخرى على نحو يقربنا من إمكانية أن يكون لدينا «نسقًا متسقًا» أم لا. ولا جدال في أنه من الممكن النظر إلى هذا المعيار على أنه «مثال» أو «نموذج» نحاول الوصول إليه، دون أن يعني ذلك أننا قد حققنا مثل هذا النسق المتسق سواء في النظرية الأخلاقية أو في مجال الصدق عمومًا، وينطبق هذا على الأحكام الأخلاقية الصادقة انطباقه على الأحكام الصادقة في المجالات الأخرى[2].

إن الأفكار الأخلاقية عند سانتيانا عادة ما تكون أفكار وليدة hybird أو متجانسة، فهي من ناحية تحتوي على الصدق فيما يخص ماديات الواقع Matters of Fact فعلي سبيل المثال يقال أن الزرنيخ مادة سامة، أو أن الإنسان الذي يتصف بكثير من الشجاعة Courage يصبح رجل متهور Rash وإذا كان يتصف بقلة من الشجاعة فإنه يتصف بأنه رجل جبان a coward ومن ناحية أخرى إذا أراد فيلسوف الأخلاق أن يؤكد على هذه المصطلحات أو يتبناها، فإنه سيصادر على هذه الحقائق بما لا يدعو للشك على أن الحياة خير، وأن الشجاعة فضيلة Virtue، والجبن رزيلة vice ولذلك فهو يأخذ بهذه المصطلحات كأدلة ذاتية ليؤكد بها الحكم الأخلاقي في ملاحظاته التاريخية والنفسية، ويحاول إرساء دعائمه بين الناس، وأن الصدق المحتمل بالنسبة للحكم الأخلاقي يدعم ويؤكد مصداقية أمور كثيرة في الحياة العادية[3].

(1) Ibid: p. 238.

(2) محمد مدين: الحدس الخلقي ـ مقال في مناهج البحث الأخلاقي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1990، ص 32.

(3) G. Santayana: Realm of Being, op. cit, p. 473.

لذلك جعل سانتيانا أساس الحياة أساس كل دافع impulse لم يتم فحصه ومعاينته، حيث يعد ذلك الأساس أساسًا صريحا وغير مشروط، فمجموعة من هذه الدوافع قد تصبح سهلة في كونها تمثل شفرة للواجب duty أو الكرامة honour فتكون دوافع تقليدية في بعض المجتمعات، أو حتى على مستوى الجنس البشري بوجه عام[1].

إن أهمية الصدق الأخلاقي الطبيعي عند سانتيانا جعلته ينادي بضرورة وجود أساس له، لذلك جعل سانتيانا التفضيل Preference أساسًا للحكم الأخلاقي، حيث يرى أن التفضيل عبارة عن شعور feeling أو دافع للعمل، لا يمكن أن نصفه بالصدق أو الكذب[2]. كما أن الإيمان faith هو بالفعل إيمان إنساني بشكل دقيق، حيث اصطحب العقل في كل توجهاته واكتشافاته، وعليها كان التفضيل هو المبدأ الأساسي للتمييز والاهتمامات[3].

أما الصدق الوحيد الذي يمكن أن يكون حكمًا أخلاقيًا، هو ذلك الصدق الذي يتصف بالعمومية وينأي عن العواطف الجياشة والأهواء الشخصية[4]. فإذا كان العقل لديه القدرة في أن يمتلك الصدق الأخلاقي moral truth فإنه بذلك يمكنه الانتقال إلى الحكم الأخلاقي المنشود، حيث يرى أن القلق والسخرية والموت كلها عبارة عن شرور مطلقة يجب أن نتجنبها، أما الحياة فإنها تشتمل بالفعل على ذلك الحكم الأخلاقي في كونها خير طالما أصبحت الحياة باقية ومستمرة[5].

لقد أكد سانتيانا على استقلالية فلسفة الأخلاق عن كل من العواطف الإنسانية، والوصايا الدينية، فرأي أن العواطف الأخلاقية التي يعبر عنها من خلال الكلمات والأفكار تعد في ذاتها عواطف آلية أو ربما تكون عواطف خادعة أو جوفاء بدون معنى، فهي شكل تراجيدي لا يمكنه ترجمة الولاء المطلق الذي يعبر عن الماهية بشكل صحيح، فهذه العواطف والأحكام ربما تكون خاطئة، حيث أنها تغشي أعيننا عن الكثير من موضوعات الواقع، كما تخدعنا بصفة خاصة في مطالبنا واحتياجاتنا الأساسية[6].

(1) Ibid: p. 474.
(2) Ibid: p. 473.
(3) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, pp. 184, 185.
(4) G. Santayana: Realm of Being, op. cit, p. 474.
(5) Ibid: p. 474.
(6) Ibid: p.475.

إن الاستقلالية والتفرد الذي ينادي بها سانتيانا في نظريته الأخلاقية يجعلنا نعود مرة أخرى، بل ربما تكون هي العودة الأخيرة إلى فلسفة جورج مور الأخلاقية، حيث رأي «مور» أن الأخلاق ليست خاصة ولا عملية، فقد رأي أن الإنسان يستطيع أن يعيش حياة خيرة دون معرفة المبادئ الأساسية للأخلاق، ولكنه أصر على أن مهمته هي أن «يعلم ما هو حقيقي بالنسبة للخير، وليس أن يجعل الناس يعملون ما هو خير» فليست مهمة فيلسوف الأخلاق تقديم نصائح أو إرشادات شخصية، فالموضوع المباشر للأخلاق هو «المعرفة» وليس العمل[1]. بل ذهب مور إلى أبعد من ذلك حيث لم يقبل أي اعتماد للأخلاق على أي علم آخر، فقد رأي أن الأخلاق وحدها هي التي تتعامل مع القيمة value ومن ثم رفض كل النظريات الأخلاقية التي تأسست على العاطفة وآراء المجتمع وآراء الآخرين وآراء أغلبية الجنس البشري[2]. وهنا يختلف سانتيانا مع «مور» في أن الأول أدخل إلى مجال القيمة نظرية الجمال وجعل أساسها النشوة[3].

إذا كان سانتيانا قد جعل من عنصر التفضيل أساسًا لكل حكم أخلاقي، وجعل التفضيل في مجال النظرية الخلقية لا يمكن وصفه بالصواب أو الخطأ، ففي هذه الحالة متي يحدث الصدق والخطأ في مجال الحكم الأخلاقي عند سانتيانا؟

إن الصدق والخطأ ربما يمكن أن يحدثا في مجال الأخلاق، فعلي سبيل المثال إذا أخذنا وصية من الوصايا العشر والتي تقول «أحب جارك كما تحب نفسك» فهذه الوصية يمكن أن يتم ترجمتها على أساس كونها قضايا propositions ولذلك فهي من الممكن أن تكون صادقة أو كاذبة لأنها مازالت في حيز الفعل[4]. وكذلك تكون أغنية الحب love-song على سبيل المثال أيضًا يمكن أن يصرح بها سواء كانت صحيحة أو خاطئة عند العديد من العشاق، لذلك تكون هذه الأغنية عبارة عن نوع من الدلالات لهذه المشاعر والأحاسيس عندما يتم مواجهتها بها، فالعقل يجب أن يتم تأكيده فلا

(1) محمد مدين: جورج إدوارد مور، مرجع سابق، ص 97.
(2) المرجع السابق: ص 98.
(3) جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال، مصدر سابق، ص 18.
(4) G. Santayana: Realm of Being, op. cit, pp.475,476.

ينبغي أن يكون مجرد وسيلة لاكتشاف القيم، فهذه القيم يجب أن تصنف على أساس كونها عبارة عن توازن حساس لهذه الميول الحاضرة، وذلك عندما تكون القيم واضحة ومندفعة بشكل تام لكي يتم إثباتها[1].

وعلى هذه الكيفية التي تم تقديمها فإن الصدق الأخلاقي لا يمكن أن يكون وصية أخلاقية أو أمرا حيويا في فلسفة سانتيانا الأخلاقية، حيث يعبر الصدق عنده عن حركة فعلية من حركات الإرادة الحرة، والدليل على ذلك أنه حيثما يوجد الصدق توجد الحياة بخصائصها وصفاتها الداخلية، وقيمها الجوهرية التي تعلو فوق جميع الموجودات والأحداث، فهذه القيم هي قيم جماعية تتمثلها الحياة في كل شكل من أشكالها المتغيرة[2].

لذلك كانت جميع الوصايا الأخلاقية تندرج تحت مسمي الروح spirit أو النفس، أما النظرية الأخلاقية وأحكامها من صدق خلقي قائما على أساس التفضيل، والإرادة كمعيار فقد اتخذت العقل ككيفية أخلاقية في الصدق. لذلك كان رجل الأخلاق moralist الذي يستند إلى حدسه، ربما يكون عند سانتيانا واعظًا جيدا، ولكن بصعوبة بالغة يستحق أن يأخذ لقب فيلسوف، حيث أنه لا يستطيع أن يجد أي سلطة لنظرياته، تلك النظريات التي لا تستطيع أن تستحضر النظريات المقابلة لها[3].

وعلى الرغم من أن سانتيانا فصل بين الوصية والنظرية في مجال الصدق الأخلاقي، أو بين ما يسمي عالم الروح وحياة العقل، إلا أنه في مقاله (الاعتراف العام) أثبت فيلسوفنا أن لا يوجد تناقض بين كل من الحياة الروحية وحياة العقل، حيث أنَّ الاثنين متلازمان، ولكن الاختلاف يكون بينهم في «المزاج» و«المستوى العام» كما يوجد هذا الاختلاف على سبيل المثال بين الزراعة وفن الموسيقي، فالرجل الذي يحرث الأرض ربما يمكنه أن يغني، كما أن عازف الكمنجة أو الجيتار ربما يزرع البطاطس، ولكن في هذه الحالة تأخذ الوظائف أساليب مختلفة[4].

(1) G. Santayana: Reason in Common Sense, op. cit, pp. 184, 185.
(2) G. Santayana: Realm of Being, op. cit, pp. 476, 477.
(3) G. Santayana: Reason in Science, op. cit, p. 164.
(4) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 27.

من هنا كانت الروح الإنسانية المعبرة عن الوصية الأخلاقية ما هي إلا عبارة عن جوهر وماهية للحياة، تم تنقيتها وتصفيتها حتى وصلت إلى هذه المعرفة التراجيدية، وذلك الولاء الخالص الذي نشعر بأنه الأفضل في كل مكان وزمان، ولهذا فإن الصدق الأخلاقي يجعل الأحكام الأخلاقية أحكامًا حتمية في هذه الكيفيات الحياتية، حيث إن الصدق الأخلاقي هذا لا يستطيع أن يمتلك ذلك التفضيل الراديكالي المتشدد[1].

(1) G. Santayana: Realm of Being, op. cit, p.479.